محاضرات في مقياس التفكير العلمي في النحو العربي

تمهيد:

نقدم في هذه المحاضرة مفهوم العلم بالنحو العربي، وفي المراحل المتأخرة في طريق العلاقة بينهما، سنكون إزاء مفهوم التفكير العلمي في النحو العربي، يشير هذا المصطلح الأخير التفكير العلمي في النحو العربي إلى النهج الذي وصل إليه النظر في قضايا النحو العربي عبر محطاته المتتابعة، وقبل أن نذهب إلى بيان هذا النهج نسبق ذلك بالوقوف عند مجموعة من المفاهيم الأساسية ضمن وحدات هذا المقياس، لنا منها: العلم، أسسه، غاياته، تليه بتحديد مفهوم النحو وبيان وظيفته، والتساؤل بالبحث عن القاعدة النحوية ومصادرها مرورا بجمع اللغة وشروط الجمع لتكتمل الصورة في علم النحو الذي سنشير خلاله إلى آليات التفكير العلمي في النحو العربي.

مفهوم العلم:

مصطلح العلم مثل باقي المصطلحات العلمية في أي مجال يمر بمحطات البروز والتوظيف ثم التطور إلى التخصص، فكلمة علم كانت تعني في العصور الوسطى المعارف، من حقائق وقوانين ونظريات ولها العلاقة مع كل فروع المعرفة الإنسانية وملحظ تغير في ذات المفهوم مع ازدياد كم ونوع المعرفة الإنسانية ليرتبط أكثر بتخصصه بالمعرفة المعتمدة في مجالات محددة ليتطبع المفهوم بالمعنى حين التخصص وهذا ما أفضى إلى تعدد التعريفات، ولعل من بين التعريفات القريبة إلى الإجماع نجد: "نظام من المعرفة المنظمة العلمية" على أساس التركيز على مضمون المعرفة، في حين نجد من ينظر إلى العلم من منظور والأساليب ليعتبره: "طريقة للتفكير والبحث من أجل التوصل إلى المعرفة وتنظيمها" ومنهم من يراه "بناء معرفي وطريقة للتفكير والبحث في الوقت نفسه".

من التعريفات الثلاثة التي تمثل ثلاث تيارات أساسية في بناء

مفهوم العلم، أبرز خصائص رئيسية للعلم وهي كالآتي:

1- قابلية التطوّر والتغيّر في أيّ علم من العلوم:

إذا كان العلم نتاج تجارب إنسانية تخضع لمراحل، أوّلها الملاحظة آخرها الاستنتاج، فإنّ سمة التغيّر والتطوّر يرتبطان بمجموعة من الظروف والسياقات التي تتضمّن الحجج والبراهين، فكلّما تعدّدت السياقات والظروف والسياقات تغيّرت النتائج والأحكام.

2- العلم انعكاس لحركة الإنسان في العالم:

المعرفة العلمية نتاج البحث العلمي وهي إنتاج إنساني لا تتعلّق بمن وضعها أو اكتشفها فقط بل بمجرّد نشرها تصبح ملكاً للجميع تتجاوز الحدود الجغرافية والزمانية والإيديولوجية.

3- العلم له أدوات:

لا نجد علما لا يمتلك أدوات خاصة به، حيث تُشكّل تلك الأدوات المنهج الذي تشتغل وفقه الدراسة في مواضيع ذلك العلم، وأي علم يخلو من أدوات تحقيق البحث فيه، فإنّه يخلو من العلمية ولا يمكن إدراجه ضمن العلوم، فبالأدوات تُحقق النتائج والموضوعية.

4- العلم يوصف بالشمولية والتعميم:

يبدأ البحث على الجزئيات ليتمّ في الأطر تعميم نتائج البحوث لتنشر على المدوّنات الموسّعة والعامة على أساس أنّ البحث العلمي يملك من الأدوات ما نظيف على الجزئيات ليتوسّع القياس على جميع دراسة أوسع، وكثيرة، هي أمثلة التعميم بعد التجريب على الجزئيات في كلّ العلوم.

غايات العلم وأهدافه:

امتلاك العلم للأدوات تجعله في إطار تحقيق أهداف عامة تظهر في كلّ العلوم بشكل عام منها:

1- الوصف
2- التفسير
3- التوقّع
4- الضبط والتحكّم.

- الضبط والتحكم: ضبط وتحكم أي ظاهرة مقترنة بأي لغة ناجحة إذا وُصفت هذه العلمية توصيفا دقيقا للظاهرة، وبيان جميع عناصرها وأبعاد استغلالها بتفسير حركيتها هذه العناصر، كل هذا يد قضايا الإفتراض والتحقق من الفرضيات من خلال التعليلات الصحيحة والعميقة.

المحاضرة الثانية: مفهوم النحو وطبيعته.

النحو:

في اللغة العربية يقصد به "نحا نحوه، إذا قصده"، ويلاحظ تطابقا مع المعنى الإصطلاحي الذي مفاده "القصد وإتباع طريق العرب في كلامهم"، ونوجز في التعريف لنذكر ما يورده "ابن سراج" عن النحو بقوله: "قال أبو بكر محمد بن السري النحوي: النحو إنما أريد به أن ينحو المتكلم إذا تعلمه كلام العرب، وهو علم إستخرجه المتقدمون فيه إستقراء كلام العرب".

ويورد "ابن جني" عن النحو: "هو انتحاء سمت كلام العرب، في تصرفه من إعراب وغيره: كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والإضافة والنسب والتركيب وغير ذلك، ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم، وإن شذ بعضهم عنها رد به إليها وهو في الأصل مصدر شائع، أي نحى نحوا كقولك قصدت قصدا، ثم خص به إنتحاء هذا القبيل من العلم".

وبذلك فالنحو عند "ابن جني" قواعد يسير عليها المتكلم في الحديث بالعربية فالقواعد مرجع الفصاحة، والفصاحة كلها محاكاة كلام العرب الأصيل.

وظيفة النحو:

إن توسع المجال الجغرافي للمجتمع العربي حمل معه نشر ثقافة العرب وتفكيرهم، ولم يكن ذلك إلا بدور أساسي للغة العربية

وعلى هذا الأساس يشعر علماء العربية بأهمية النحو، و[illegible] وعلى عمومها وبذلك حماية وظيفته الأساسية والمتمثلة في الحفاظ على الفصيح من اللحن والغلط.

فالنحو مقياس رئيسي للفصل بين المعاني والتراكيب المتداخلة لفعل اللحن.

وإذا كان النحو هو علم يحدد العلاقات بين الكلمات في التراكيب اللغوية وبرز الوظائف الدلالية، فالإعراب العنصر الأهم في ذلك، حيث بالحركات تتأكد المعاني النحوية، ومن وظائف النحو حسب الزجاجي: "فإن قال قائل: فما الفائدة في تعلم النحو، وأكثر الناس يتكلمون على سجيتهم بغير إعراب ولا معرفة منهم به، فيتفاهمون ويفهمون غيرهم مثل ذلك؟ فالجواب في ذلك أن يقال له الفائدة فيه الوصول إلى التكلم بكلام العرب على الحقيقة صوابًا غير مبدل ولا مغير وتقويم كتاب الله عز وجل الذي هو أصل الدين والدنيا والمعتمد، ومعرفة أخبار النبي صلى الله عليه وسلم، وإقامة معانيها على الحقيقة. لأنه لا تفهم معانيها على صحة إلا بتوفيتها حقها من الإعراب"[1].

يقوم النحو بضبط الوظائف النحوية للكلمات في التركيب اللغوي ليبان طبيعتها مثل الفاعل، الفعل والمفعول وبذلك "**الوصول إلى المتكلم بكلام العرب**". ويقول السكاكي: "أعلم أن علم النحو هو أن ينحو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقا بمقاييس مستنبطة من استقراء تلك الكيفية".

---

(1). الإيضاح في علل النحو، ص 95.

المحاضرة الثالثة: مصادر القواعد النحوية.

تمهيد:

الحديث عن مصادر القواعد النحوية في هذا المقام ضمن إطار التفكير العلمي في النحو العربي يتطلب منا الحديث عن ترجمة التركيب اللغوي - مصادر القواعد النحوية - فبالعودة إلى تاريخ النحو العربي نجد أن البحث عن مصادر القواعد هو بحث عن أصول النحو العربي.

وفي هذا الصدد نشير إلى أن مفاهيم المصطلحات الأصل والقياس والقاعدة والمطرد والباب عند النحويين ويبدو أن تأثير علم أصول الفقه واضح في القواعد النحوية وأصولها، وبذلك أصبح للأصل عند النحويين مفاهيم أكثر من القاعدة ليسمى علم أصول النحو ما يعني بأصول القواعد النحوية ومصادرها.

نستحضر قول السيوطي للاستدلال على أن القاعدة قد تلغي ما يعنيه الأصل وهو الحكم المبني على ملكية الشواهد: "قاعدة: أصل الإعراب أن يكون بالحركات والإعراب بالحروف فرع عليها."[1] والأصل في كل هذا هو الدليل مثل السماع والقياس والإجماع والاستصحاب، وحكم أصول النحو هو علم الأدلة، وظهوره مرتبط بظهور كتاب الخصائص لابن جني" محاكيا منهج أصول الفقه، يقول ابن جني "أشرف ما صنف في علم العرب وأنبهه في طريق القياس والنظر ..... وأجمعه للأدلة على ما أودعته هذه اللغة الشريفة من خصائص الحكمة، ونيطت به من علائق الإتقان والصنعة ..... وتريني أن تعريد كل من الفريقين: البصريين والكوفيين عنه ..... إنما كان لامتناع جانبه .....وذلك أنا لم نر أحدا من علماء البلدين تعرض لعمل أصول النحو على مذهب أصول الكلام والفقه."[2]

---

(1)- السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر، الأشباه والنظائر في النحو، تح: عبد الحسين الفتلي، ط2، بيروت 1985، ج1، ص52.

(2) الأنباري، لمع الأدلة. ص47.

* أصول النحو علم يبحث

ويعرّف السيوطي علم أصول النحو بقوله: "علم أصول النحو علم بأدلة النحو الإجمالية، من حيث هي أدلة، وكيفية الاستدلال بها، وحال المستدل، فقولي (علم) أي صناعة .... وقولي (عن أدلة النحو) يخرج كل صناعة سواه النحو وسوى النحو .... وقولي (الإجمالية) إحتراز عن التفصيلية، كالبحث عن دليل خاص بجواز العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار، ..... وكذلك، وهذه وظيفة علم النحو نفسه، لا أصوله، وقولي (من حيث هي أدلة) بيان لجهة البحث عنها أي البحث عن أصوله، وقولي (أو كيفية الإستدلال بها) أي عند تعارضها ونحو، كتقديم لا يجوز، وقولي (وحال المستدل) أي المستنبط للمسائل من الأدلة المذكورة، أي صفاته وشروطه وما يتبع ذلك من صفة المفتي والسائل."[1]

ومن خلال الحديث عن أصول النحو فإنه من من العلوم العربية لها علاقة بالعلوم الشرعية المرتبطة بالقرآن الكريم لأجل الحفاظ على الأداء الصحيح من خلال تتبع الضوابط والقوانين الممكنة من الفهم الصحيح لأحكامه ومقاصده بالإعتماد على الصرف والنحو والبلاغة وأصول الفقه،

وتتلخص غايته في:

- الإستنباط والتقعيد.
- الإستدلال.
- الترجيح بين الآراء.
- التوجيه والتخريج للنصوص.

---

(1) السيوطي، الإقتراح ص 6، 5.

المحاضرة السابعة والخامسة:

- جمع اللغة وشروطه
- مراحل جمع اللغة.

دفعت عوامل كثيرة ومتعددة إلى التفكير في جمع اللغة وتدوينها عند العرب ومنطلقها كلها تقريبًا الإحتكاك والإختلاط الذي حدث في فترات الحج والهجرة التي اقتضتها عوامل الطبيعة حيث خاف الأمر على اللغة قيلت من التغيرات التي تم رصدها من قبل أهل ؟ العربي الفصيح، وكثير هنا إلى أن حدوث نهضة لغوية بنزول الحبشة والفرس في اليمن أقاموا فيها واختلطوا بأهلها وكانوا يحجون إلى الكعبة، وأهل الكعبة يتاجرون في اليمن ما سبب إختلاط في اللسان.

والمعروف عن اللغات أنها تمر بمراحل ومحطات كغيرة اللغات في العالم، وإذا أردنا أن نعرض إلى محطات اللغة العربية سيكون ذلك وفق ثلاثة مراحل أساسية كالآتي:

1- المرحلة الأولى:

اللغة العربية فرع من اللهجات موزعة على شبه الجزيرة العربية، ولعل أهم هذه اللهجات نجد اثنتين: لهجة قبائل بني عدنان في شمال الجزيرة العربية، ولهجة قحطان الحميدية.

2- المرحلة الثانية:

يبدو أنه الإختلاط بين القبائل في الحروب والحج والتجارة أفرز لك في إجتماع القبائل وتورد الكفايات التاريخية إلى أن لهجة قريش سيطرت على الوضع اللغوي، حيث كانت اللهجة التي تأخذ من اللهجات الأخرى بين الشام واليمن وفارس والحبشة، حيث تدخل التعديلات والتهذيبات على ما تأخذه من هذه اللهجات.

3- المرحلة الثالثة:

تبدأ هذه المرحلة بنزول القرآن الكريم، حيث ظهر التوجه اللغوي المعجز والمتم لكمالها ليشيع بالحديث النبوي الشريف الذي أوضح معاني القرآن وشرع لغته وهذه القيمة المضافة لهذه اللغة من خلال القيمة

الدينية، حيث زاد رصيدها اللغوي وترقت معانيها. وفي هذه المرحلة زاد
إختلاط العرب بالحضارات والأمم الأخرى على إختلاف دواعي الإختلاط
من استعمار وتجارة، زاد اللحن بعد ذلك مباشرة في العصر الأموي
661 - 749 م دفع هذا ثلة من الصوريين على العربية فانبرى "أبو الأسود
الدؤلي" وتلامذته لوضع رسم إعراب القرآن الكريم عن طريق النقط
والشكل ووضع قواعد النحو.

زاد انتشار الإسلام في العصر العباسي، وقد تأثرت بذلك اللغة
العربية أفضى إلى ظهور آليات القياس والتعليل اللغوي، ظهور علماء في
اللغة مثل: "أبو عمرو بن العلاء" و"عيسى بن عمر الثقفي"، و"الخليل بن أحمد
الفراهيدي" و"سيبويه" و"الكسائي" حيث ألفوا وأسسوا المنهج وقواعد
أسست لتراث لغوي، ولعل هذا بداية بروز المدارس اللغوية النحوية
من خلال الإختلافات في مناهج النظر إلى قضايا المعجم والنحو واللغة
العربية عموما، وهذا ما حمل على التأليف والتدوين أكثر منه وقت سابق

المحاضرة السادسة:

الاحتجاج اللغوي.

أخذت قضية الاحتجاج لدى علماء اللغة المركز من اهتماماتهم في ضبط جمع اللغة وتدوينها. ومن أهم تحديات الاحتجاج الخزينة التراثية اللغوية الواسعة والمتنوعة، حيث نجد القرآن الكريم، الحديث النبوي الشريف والمدونة الشعرية والنثرية. هذا التراث اللغوي طرح أكثر من إشكالية تتعلق بالأسس المعتمدة في الاحتجاج وبنوعية المصادر التي يمكن الاعتماد عليها اعتبارا للاحتجاج.

1- الاحتجاج بالقرآن الكريم:

تعتمد المدونة اللغوية التي كان الاختلاف حولها في الاستشهاد بها، هي والشاذ الذي فيه من القراءات.

يقول ابن جني في الشاذ من القراءات: "وضربنا تعدى ذلك[1] فسماه أهل زماننا شاذا، أي خارجا عن قراءة القراء السبعة المتقدم ذكرها، إلا أنه مع خروجه عندها نازع بالثقة إلى قرائه، محفوف بالروايات من أمامه ووراءه... لكن غرضنا منه أن نرى وجه قوة ما يسمى الآن شاذا، وأنه ضارب في صحة الرواية بجرانه، آخذ من سنمت العربة مهلة ميدانه"[2].

يقول السيوطي: أما القرآن فكل ما ورد أنه قرئ به جاز الاحتجاج به في العربية، سواء كان متواترا، أم آحادا أم شاذا، حيث شرعت الناس في الاحتجاج بالقراءات الشاذة إذا لم تخالف قياسا معلوما.

2- الاحتجاج بالحديث النبوي الشريف:

في الاحتجاج بالحديث النبوي الشريف نجد فريقين:

الأول يمنع الاستشهاد به في مسائل اللغة، ودليلهم في الأمر أن الأحاديث يجوز روايتها بالمعنى.

---

(1). القراءات المتواترة.

(2). المحتسب 1/32، 33.

3. الاتجاه الذي سلكه الشعر

قسم الشعراء إلى طبقات:

1. طبقة الجاهليين: زهير طرفة، أمرؤ القيس وعنترة والنابغة وغيرهم
2. طبقة المخضرمين: وهم الذين شهدوا الجاهلية والإسلام أحسان في ثابت، ولبيد والخنساء وكعب بن زهير
3. الإسلاميون: وهم الذين كانوا في صدر الإسلام: جرير والفرزدق وأبو عطل
4. المولدون: أو المحدثون، وهم من بعدهم إلى زماننا. بشار أبي نواس

هنا نشير إلى أن الطبقتين يُستشهد بشعرهما إجماعًا، أما الثالثة فالصحيح صحة الاستشهاد بكلامها، أما الطبقة الرابعة فالصحيح أنه لا يستشهد بكلامها مطلقا، أو قد يؤخذ بكلام من يوثق به منهم. يقول ابن قتيبة: "ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خصّ به قومًا دون آخرين، بل جعل ذلك مقسومًا مشتركا بين عباده في كل عصر، وجعل كل قديم حديثا في عصره"(1)

ويقول أيضا: "وكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له، وأثبتنا له عليه، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله ولا حداثة سنه. كما أن التقدم والمتأخر علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا ثقة به"(2)

يقول الحرجاني: "إن الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء، ثم تكون الأزمنة مادة له، وقوة لكل واحد من أسبابه، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان، ولست أفضل في هذه القضية بين القديم والمحدث، والجاهلي والمخضرم والأعرابي والمولد"(3)

---

(1). الشعر والشعراء، لابن قتيبة، 1/69.

(2). المرجع نفسه.

(3). الوساطة بين المتنبي وخصومه ص 85.

ب. الاستشهاد بالنثر

في الاحتجاج بالنثر تذكر المصادر أنّ هناك قبائل يعتدّ بها يؤخذ عنها ويستشهد بكلامها، وأخرى لا يستشهد بها ولا يحتجّون بكلامها.

ويُشير السيوطي[1] في كتابه "الاقتراح" و"المزهر" أنّ "أبا إبراهيم الفرابي" حدّد في كتابه "الألفاظ والحروف" أسماء القبائل التي يُحتجّ بكلامها وأسماء القبائل التي لا يستشهد بها بما سمع عنها: فقال: كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللّسان عند النّطق، وأحسنها مسموعًا وأبينها إبانة عما في النّفس، والذين عنهم نُقلت اللّغة العربيّة وبهم اقتُدِيَ وعنهم أخذ اللّسان العربي من بين كلام العرب، هم قيس وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتّكل في الغريب وفي الإعراب والتّصريف ثم هذيل وبعض كنانة، وبعض الطّائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائل قبائلهم.

وبذلك التّعريف عن الحضر والقرى البعيدة عن الحضر أي البوادي من كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأمم الذين حولهم.

وبذلك يكون الاستشهاد في النّثر على قاعدتين:

1. مقدار قرب المساكن من مكّة وما حولها.
2. مقدار توغلها في البداوة.[2]

وإنّ كثيرا من الرّواة من المولّدين بعد عصور الاحتجاج معرضين للّحن، والطّريق الثّاني الذي يقبلون الاحتجاج به حجتهم أنّه إذا جاز اللّحن في رواية الحديث، يجوز في رواية الشّعر، بل إنّ احتمال اللّحن في رواية الأشعار أكثر لما لأثر الدّين في تذكر نصوص الأحاديث بل يعوها ويحفظها.

---

(1): الاقتراح ص 90-91، المزهر 1/211، 212.

(2): في اللّهجات العربيّة ص 57

وفي خضم هذا الخلاف نجد محاولات لوضع شروط في الاحتجاج لدى المحتجين، وفي المقابل نجد مبررات لما يمنع الاحتجاج، فالمانعون يبررون لإعتبارين:

1. عدم نقل الأحاديث مثلما قالها الرسول صلى الله عليه وسلم.
2. وأن الكوفيين والبصريين الأولين لم يحتجوا به.

ويبرر المجوزون بما يلي:

1. النقل بالمعنى إنما كان في العصر الأول قبل تدوينه في الكتب وهم ممن احتج بهم، لأنهم في عصور الاحتجاج، وغايته تبديل لفظ بلفظ، وهذا يصح الاحتجاج به.
2. وأنه لا يلزم من عدم استدلال المتقدمين بالحديث عدم صحة الاستدلال به.

ويرى طرف آخر الثالث يأخذ مكان الموافقين الاتجاهين الأولين حيث يستشهد بقسم دون قسم، وقسم لا يحتج به في مسائل اللغة، ويضع مجموعة من الأحاديث يستشهد بها وفق ما تتوفر عليه من خصائص وهي:

1. الاستشهاد بأحاديث مضمونها الاستدلال على فصاحة النبي صلى الله عليه وسلم.
2. ألفاظ القنوت والتحيات والأدعية وغيرها من أقوال التعبد.
3. أحاديث من مصادر متعددة وبلفظ واحد.
4. أحاديث يرويها أولئك الذين نزحوا إلى بيئة عربية، كأنس والشافعي.
5. ما عرف من حال رواته أنهم لا يجيزون رواية الحديث بالمعنى، كابن سيرين والقاسم بن محمد وزجاء بن حيوة.

يشير ابن جني في كتابه "الخصائص": "نترك الأخذ عن أهل المدر كما أخذ عن أهل الوبر"، ما يعني أن العلماء أخذوا عن البادية وتركوا الحضر.

من الملاحظات المسجلة فيما يتعلق بالاستشهاد بالنثر:

1. الاعتماد على المشافهة دون المكتوب.
2. ارتباط الفصاحة بالجنس، وبذلك الاعتماد على الأصل للعربية

3- في الحضر خلط بين مستويين في اللّغة لا يصحّ الخلط بينهما مستوى اللّغة الأدبيّة ومستوى اللّهجات العربية ممّا فتح باب التّأويل.

4- التّوسّع حول العربية دون الإطلاع على اللّغات الأخرى ممّا يسبب التّدنّي والإحتيار